

جدل الهوية وتجربة الغريب

د/ العربي ميلود

جامعة مستغانم

مخبر الأنساق، البنيات، النماذج والممارسات. جامعة وهران 2.

والعلاقات التي تعقدها الأنا مع كل ما هو مختلف وآخر. البحث في صورة الأنا من خلال الآخر.

لكن لم تتمكن الفلسفة المعاصرة من تفعيل هذه الصور الوجودية إلا بعد أن سلّمت بضرورة تجاوز ميتافيزيقا الذات، والتأكيد بان التفريق بين الوعي والوهم لا يتم إلا بفعل إنفتاح الذات على كل ما هو مختلف وخارج عنها، أي بفعل التزاوج والاختلاط مع كل من ليس "أنا" وليس "نحن".

ويكفي الحفر في هذا العمق الدفين للوجود الإنساني لنستذكر ان ميتافيزيقا الذات وتمركز الذات حول نفسها كان دوما إغفال ونسيان لها، فتمركزية الذات يجعلها لا تفكر في تعدد الذوات بل تفكر في ما هو ثابت ومطلق فقط.

وهذا التمرکز هو نسيان مرضي للاختلاف فهي إذن نسيان للآخر، وبذلك سيمثل هدم مركزية الذات استرداد لوجود الآخر من حيث هو مغاير للذات، من حيث هو اختلاف منسي،

إن مجرد التفكير في سؤال الغيرية يعود بنا للحديث عن الذات، أو بتعبير أكثر دقة إعادة التفكير في سلطة الذات الأنطولوجية والأكسيولوجية، وهذه العودة إلى الذات هي عودة لأجل التحديد الماهوي للإنسان ككل، الذي جعل منه يقين الذات متمركزا حول بعد واحد تمثله ذات ثابتة ومتعالية، فتحول الإنسان داخل حدود هذه الرؤية الأنطولوجية إلى مطلق وثابت، والمقصود بالإنسان هنا هي أناه.

غير أن مجرد التفكير في الإنسان وفق هذه المقتضيات يمثل إقصاء أنطولوجيا للآخر، لذا سنجد أن الفلسفة المعاصرة حاولت زحزحة مفهوم الإنسان من الأنطولوجيا إلى الأنتروبولوجيا إلى الهرمونيوطيقا لاحقا، فسعت لأن تغير سؤال ما هو الإنسان؟ إلى من هو الإنسان؟، وهي بهذا تبحث في التاريخي والمحايث، واضعة المفاهيم الميتافيزيقية بين قوسين.

ومن خلال السؤال من؟ بات الفهم الأنطولوجي للإنسان متمخض من مجموعة العلائق المنضوية في إطار سؤال الغيرية، أي في مجموع الحثيات

لأننا لا نبحث عن ما فكرت فيه الذات بل ما فكر فيه الآخر لنقله إلى ساحة الشعور والاعتراف بوجوده وأحقيته في الوجود بمعنى نقله من اللامفكر فيه إلى ساحة الشعور، ليس إذا هذا الآخر اللامفكر فيه شيئاً خارجاً عنا بل هو مؤسس لوجودنا.

فمن هو الآخر؟ وما علاقته بالذات؟ هل يمكن أن تتحول الذات إلى آخر؟ ويتحول الآخر إلى ذات؟ كيف ستطرح الذات ذاتها إن لم تكن مجرد آخر؟ هل ستتواصل الذات مع هذا الآخر عن طريق الفعل أم عن طريق التأويل؟

إن كانت هذه الذات هي الآخر، فلم الحديث عن العداوة والصداقة والتواصل وغيرها من المفاهيم التي تثبت اختلاف الذات عن الذات الأخرى؟

ما هو الآخر؟ أهو المشابه أم المختلف أم المتناقض عني؟ كيف تتحدد صور الآخر لدى الذات، عن طريق الوعي أم الإرادة؟ هل الآخر هو من يحتوي الذات؟ أم أن الذات هي من يجب أن تنفتح على العالم لتجد الآخر؟

ما هي الغيرية؟ هل هي مقولة وجودية أم مقولة أخلاقية؟ هل يمكن اختزال مقولة الغيرية في الأخيرة؟ أم أنها النسق المحدد لعلاقة الذات والآخر؟

إذا كانت الغيرية نسق أو نظام فهل ستكون هناك جدلية بينها وبين الهوية؟ ولماذا يطرح سؤال الهوية في مقابل سؤال الغيرية؟

هل الغيرية هي علاقة زمنية بين الذات والآخر؟ وهل زمنية اللقاء والاعتراف والمماثلة والاعتراب هي الأوجه الفعلية المحددة لهوية الأنا؟

قد لا نتوقف عن التساؤل عند هذا الحد، لأن التفكير في الغيرية يجعلنا نحمل استفهامات عدة وهواجس فعلية مختلطة بين ما هو تجريدي وما هو واقعي.

ولنجعل منطلق محاولة تعقب هذه الهواجس، سؤال ريتشارد رورتي الذي لخص لنا سؤال الغيرية، باعتباره سؤالاً أخلاقياً كما يلي: ما هو الموحد المثالي الذي يمكن البحث عنه، لتصبح مجموعتنا أقل من جماعة وأكثر من جيش؟

"الحل الذي نادى به رورتي يكمن ببساطة في التخلي عن سؤال: من نحن؟ والاستعاضة عنه بسؤال: « Que sommes nous ? » ماذا نحن؟" (..) تحدد "نحن" بالنظر إلى باقي الأنواع بالتركيز على ما يشكل جوهر الإنسان. هناك إذن عودة إلى السؤال الكانطي: ما هو الإنسان؟ وراء ما هو أيديولوجي وسياسي. وفي هذه الحالة فإن إطار الهوية يترك المكان للإطار الإنساني كما تأخذ إشكالية الغيرية مظهرها ميتافيزيقياً".¹

¹ - التريكي فتحي، بول ريكور فيلسوف الغيرية، ضمن، مجلة أوراق فلسفية، العدد 08، 2003، مركز النيل للكمبيوتر، القاهرة. ص 81.

الغيرية : مقارنة في المفهوم :

لم تكن الغيرية مجرد مفهوم تستدعيه الفلسفة كلما واكبت الإنسان أزمة في القيم المنبثقة عنه أو الوافدة إليه، بل كانت بمثابة مقدمة ضرورية لتبلور فكر تاريخي زمني يحفظ للذات دورها في الحياة، فقد انعكست الفلسفة من خلال مبحث الغيرية لتحقيق الإنسجام والوفاق بين حضور الذات الذي يمثله الوعي، وحضور الآخر المتمثل في أشياء العالم، وعليه ونظرا لما احتلته الغيرية داخل مسار الفكر الفلسفي اعتبرت على أنها تنتمي "منذ الحوارات الأفلاطونية (برمينيدس وثائيتاتوس وفيلابوس والسوفسطائي) إلى كبرى "الميتامقولات" التي ساهمت في بناء الخطاب الفلسفي كما يبدو عليه اليوم".[□]

فالغيرية مثلت في الفلسفة إستراتيجية تأملية تتجه صوب قولبة أشكال الوجود بما يضمن تفكيك رموزه المفهومية قبل انبعاثها كصور ومقولات وجودية تبحث في الإنسان بما هو ذات واعية وآخر متميز ومختلف، بإمكانه أن يحدد طبيعة الحركة الزمنية للذات، وما يترتب عنها من مقارنة لمقولات الوعي والإرادة والحرية، وهكذا أسست لاحتضان مفهوم الغيرية كسبيل إلى تخليص الإنسان من نزعة التمرکز حول الذات والوثوب بالحياة الإنسانية إلى أقصى صور التحضر على الصعيد الخلقي - خصوصا-

باعتباره الحامل لكل أبعاد تحرر الذات من شتى أشكال الوعي الزائف، وتحقيق قانون أخلاقي يضمن لنسق الغيرية أن يساير ديناميكية الوجود، لأن استيعاب الذات لهذا النسق ينطوي على "تقدير الذات في ظل قانون أخلاق الواجب".[□]

ومن ضمن ما يفرضه علينا قانون أخلاق الواجب هذا، أن وجود الذات منوط بوجود الآخر، فلا يبدو هذا الآخر شبها مخيفا أمام الذات بقدر ما يظهر على أنه أنا آخر وليس غير للذات، لأنه يجعل من وجوده محور تفكير الذات، ما يمكنها من استيعاب جذورها والحقائق المتلازمة مع هذا الوجود.

وانطلاقا من هذا التداخل المذهمي على المستوى النظري كما على المستوى الوظيفي، سنحاول استجلاء مفهوم الغيرية من خلال التصور الذي طرحه بول ريكور للهوية وكذا من خلال المفهوم الملتبس للغريب في عالمنا الراهن.

تجليات الهوية لدى ريكور :

الهوية بمنظور ريكوري هي إستراتيجية تغييرية تتجاوز المساءلات الميتافيزيقية لتتجه صوب الصور والنماذج التي تتمثل من خلالها الذات، وتشكل مجموعة تمثالاتها داخل العالم، فقد حاول ريكور أن يمنح تصورا جديدا للهوية ولمفهوم الزمن، تتحدد وفق هذا التصور علاقة الإنسان بنفسه،

³ - بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة وتعليق جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة لبنان. ط1، 2005، ص 398.

² - جان غرايش، الغيرية: مقولة أخلاقية، ترجمة وحيد بن بوعزيز، ضمن مجلة آيس، العدد 02، 2007، ص 28.

وعلاقته بالعالم أي بالآخر، فتتراءى بناء على هذه العلاقات مصير الإنسان وغايته في الحياة.

لكن قد لا يمكن تحديد معنى الهوية بعيدا عن التصورات الميتافيزيقية وعن سلطة براديغم الذات الديكارتية، إلا مع تأويلية الذات، وإعادة البحث عن تصور فلسفي لمفاهيم الذات والهوية والشخص، تكون كمعيار يضبط وفقه مغزى وجود الإنسان من خلال ضبط أشكاله الهوياتية، وكوسيلة أيضا للتعامل الفعال مع الزمن.

وعليه فإن سؤال الهوية لدى ريكور سيتخذ مستويات ثلاث، تؤطرها تساؤلات ثلاث:

❖ - ماذا أكون أنا؟: هذا السؤال يناظر ويرمي إلى تحديد ميزة وخصوصية هذه الذات، وهذا التساؤل يدرجه ريكور ضمن ما يسميه بالهوية المتطابقة l'identité-idem.

❖ - من أكون أنا؟: هذا السؤال يجيب عن قدرة الذات في الالتزام بكل وعودها، وهذا ما يسميه ريكور بالهوية الذاتية l'identité-ipse.

❖ - ما يتوسط هذه الأنا؟: هذا السؤال لربما يمثل أهم مظاهر هذه الأنا، لأنني "أنا" في الأساس حياة مروية، وهذا النمط الهوياتي يدعوه ريكور بالهوية السردية l'identité-narrative.

ويمكن أن نُمفهم هذه العلاقات الهوياتية من خلال استيعاب دقيق لمختلف الجوانب التي تتداخل فيها هذه الأشكال المعطاة، فضمن "تصور ريكور للهوية الشخصية نجدها تتألف من قطبين

مرتبطتين مع بعضهما وفق علاقة دياكتيكية، أحد هذين القطبين يمكن أن يرسم التوازن القائم بين الهوية العددية للشخص، والفعل الذي يؤكد أن الشخص هو ذاته (soi- même)، من جهة إسكان الشخص في الزمن، ومن جهة أخرى أكون أنا ذاتي (moi- même) □.

وعليه يمكن القول بأن العامل الذي كان وراء تماهي مفهوم الهوية لدى ريكور من خلال هذه الأنماط الثلاث (المطابقة، الذاتية والسردية)، تُمثل في إدراك الرابط بين الذات والأنا، ما يترتب عنه ارتقاء وعينا بحركية هذه الأنا داخل الزمن المستمر، ما سيمنح الإنسان رؤية أكثر تفاؤلية للوجود وأسئلته المقلقة.

الغريب: انبثاق الآخر من الذات .

يفهم الجسد بما هو جسد خاص عل أنه المحقق لوجوديتي وبه أباشر هذا العالم وشرط إنيتي، كما قد يفهم بمعنى آخر على أنه غريب أو مجرد موضوع فيزيائي وبيولوجي يتعين في وضع أنطولوجي، يمكن أن تندرج تحته مسألة الغيرية كسلبية معلنة "تتضمنها علاقة الذات مع "الغريب" بالمعنى الدقيق للآخر غير الذات، وبالتالي الغيرية الملازمة للعلاقة البيندائية" □.

⁴ - János Kelemen, L'altérité de l'autre, un hommage à Paul Ricoeur, in, Le même et l'autre – identité et différence- actes d'un congrès international, p 103.

⁵ - بول ريكور، الذات عينها كآخر، مصدر سابق، ص 590.

يبدو الغريب الأكثر تمثيلا لعلاقتي مع الآخر، باعتباره مفهوما ديناميكيا للهوية، لأنه يحتل مكانا وسطا بين الذات وغيرها، فحين نتحدث عن غريب الأنا نحن نحكي شعورا يتملك هذه الأنا في معرفة تناقضاتها وحواراتها الذاتية وصورها الوجودية، وبما أن هذا النوع من المحاكاة هو هاجس تعايشه كل أنا تعتمد دوما إلى إقصاء الغير من مجال التفكير، وتحاول أن ترسي أسس العلاقة وفق منطق السيد والخادم، أين يُمثل الخادم كغريب يسكن هذه الأنا ويعتبر سلب ونفي لها.

هذه الرؤية الضيقة للذات تجعل ريكور يطرح أكثر من تساؤل حول حقيقة الذات نفسها وعلاقتها بما تسميه غريب الذات، محاولة الإنوجاد داخل عالم محدود وضيق تتشابك فيه الذات مع انغلاقيتها التي رسمتها لنفسها، وهنا ستظهر تساؤلات ريكور لتطرح داخل سياق تأسيس أنطولوجيا للجسد تستهدف مجاوزة نظرة الذات للآخر على أنه غريب، إذ يقول: "هذا التعولم يقوم على تشبيك حقيقي أصيل أرى نفسي كشيء من أشياء العالم، بهذا الواقع ألا تكون اللعبة كلها قد تمت؟ أن يكون جسدي هو أيضا جسم، ألا يتضمن هذا بأنه يبدو كذلك في أعين الآخرين؟ فقط جسد (بالنسبة إليّ) الذي هو جسم للغير (للآخر) يمكن أن يلعب دورا كأول

حد للمماثلة للتحويل التماثلي من جسد إلى جسد".⁶

وهنا ستعايش الذات لحظة اغتراب ذاتية، تؤسس لها مسافة فاصلة بينها وبين الآخر، ما ينجر عنه إسكان الذات في ثانيا هوية شخصية متطابقة (Mémeté) l'identité-idem، انحلالها في مسرح الوجود يتباين بين انسجام ووافق ذاتي وغربة عن عالم الأشياء، لتتحقق فعليا حينما تنتفي الوحدة القائمة بين الفرد ومجموع البنى الاجتماعية الأخرى، ف "حينما تغترب البنية الاجتماعية عن الفرد فإنه ذات الفرد الحقيقية - متموضعة- هي التي تغترب عنه".⁷

وعليه سيتحدد غريب الذات من خلال إحساس أو شعور بأخرية شيء ما، سواء إنوجد خارجا عن الذات منذ اللحظة الأولى أو اكتسب صفة الغرابة نتيجة التحدي الذي يفرضه الصراع القائم بين الذات والغير، وهنا سيفتق الغطاء الرومانسي الذي شكل هذه العلاقة الهوياتية التي عمدت دوما على أن تكون الذات هي عينها الآخر.

في محاولة تحديد الإطار العام لمعنى اغتراب الذات سنوظف التعريف الاصطلاحي للاغتراب باعتباره يحمل الحدود المفهومية لاندماجه داخل نسق الغيرية: "فالأصل اللاتيني لكلمة اغتراب هو Alienatio، ويستمد هذا الاسم معناه من فعل

⁶ - المصدر نفسه، ص 613.

⁷ - ريتشارد شارت، الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، دار شرقيات القاهرة، ط2، 1995، ص 79.

Alienare بمعنى تحويل شيء ما لملكية شخص آخر أو الانتزاع أو الإزالة وهذا الفعل مستمد بدوره من فعل آخر هو Alienus أي ينتمي إلى شخص أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ Alius الذي يعني الآخر سواء كإسم أو كصفة⁸.

من أبعاد الإغتراب المطروحة وأكثرها خطرا على الذات "تغريب الكائن البشري عن الكائن البشري، أي تغريب على مستوى تشارك الذوات"⁹، وها هنا يمكن أن نورد بعض الأمثلة المعبرة عن هذا الشكل، كتأشيرة الدخول مثلا المفروضة على تنقل الأشخاص من مكان إلى مكان آخر، إذ يبدو الأمر في حد ذاته غريبا فهو تأكيد لغيرية الغير من خلال عدم الإعتراف بإنسانية الآخر، وعليه سنظل مشدوهين تجاه هذا التمييز، فلم نكن نظن يوما بأننا غرباء، ونحن الذين لطالما آمنا منذ بدء البشرية بالقيم الكونية.

كما قد نفكر في اغتراب الجسد وإنزاله موضع غربة مفروضة عليه، فيتم تعريفه "كمجموع أجزاء دون باطن، والنفس ككائن ماثل أمام ذاته دون مسافة فاصلة"¹⁰. لكن قد يصطدم هذا الفهم بما توصل إليه الطب الحديث من اكتشافين يشدان الانتباه إليهما حين الحديث عن أشكال الغربة التي تفرضها غيرية الغير ألا

⁸ - المرجع نفسه، ص 53.

⁹ - بول ريكور، محاضرات في الإيديولوجيا والبيوتوبيا، مصدر سابق، ص 100.

¹⁰ - M. Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, Ed Gallimard, Paris, p30.

وهما الاستنساخ وزرع الأعضاء، فما المعنى الذي سنمنحه لهذا الجسد أو حتى لهذا الكائن الجديد، فهل هو أنا أم غير؟ أم هو أنا الغير أو غير الأنا؟، فعملية زرع جسم دخيل عن جسمنا لا تخرج عن مفهوم الغربة والغريب.

وبالتالي لن يتحدد الغريب الآخر بكونه الخارج عن وحدة الذات بل سيكون هو الذات عينها باعتبار أنه تمكن من خلق تزاوج بيولوجي بين جسمين أسسا لأنطولوجيا خاصة بالجسد تستحضر الآخر كجزء من هذه الذات لا كشيء مغاير لها.

لكن اشتقاق الآخر من الذات سيجعل من الأنا مركزا والآخر محايثا، فمأسسة مفهوم أخلاقي للغريب لا يجب أن تتمرد على مفهوم مركزي ومحوري داخل نسق الغيرية، هو مفهوم الإعتراف المتبادل بين الذات والغير، فلا يمكن لأي ذات أن تحقق وجودها داخل عزلة وانكفاء على ذاتها، مع إنكار لغيرية الغير، الذي "يشكل جزءا من وعيي لذاتي، بل ليس من ذات من دونه، وعيب المتوحداني (Solipsiste)، الأكبر هو تصويره للآخر عن طريق تشبيهه دوما بذاتي، أي إدخاله ضمن ذاتي، وبالتالي إنكار لغيريته"¹¹.

هذا هو الشكل الذي يسعى خطاب الغيرية ترسيمه، ألا وهو إحياء البعد الأخلاقي للإنسان، وترسيمه كهوية ذاتية للذات والآخر معا، والأمر لا يعدو بعث إنسان جديد ومختلف، بل هو

¹¹ - بول ريكور، الذات عينها كآخر، مصدر سابق، ص 658.

محاولة تأسيس لمشروع إنسان بشكل مختلف،
لطالما أسيء توظيف مفهومه واستعماله. هذا
المفهوم الجديد للإنسان سيكون مقرونا بمفهوم
التنوع والثراء، بمفهوم الاعتراف والعناية،
بمفهوم الفعل والتفاعل، إذ لا يفترض هذا المفهوم
أي خلفية ضمن واحدة الأنا بل إن مراهقاته
تمتد إلى خارج الذات فيظهر الغير فاعلا في
منحى جديد لفلسفة الحياة التواصلية، لأن
"الإنسان يتألم بقدر ما يفعل، وهو يخضع لكل
تقلبات الحياة"^{□□}، وعليه سيحمل مشروع هذا
الإنسان مبادئ جديدة من شأنها التععيد لجذلية
الذات والآخر وفق مفاهيم: الهوية، الاعتراف،
التكافؤ، العيش معا، النقاش، الحوار، التواصل،
الصداقة، المحبة، الحق، الأخلاق الواجبية،
وغيرها..

¹² - المصدر نفسه، ص 357.